الفصل الثانى عشر

مرحلة انتقال

أمضى الإنسان الأوروبى ثلاثة قرون محاولا التخلص مما كسا عقله وصبغ تفكيره خلال العصور الوسطى . وشهدت الفترة بين القرن الرابع عشر والسادس عشر حركات جريئة تحدى فيها العقل الأغلال التى صفدته طويلا ، تحدى فيها الفلاحون والأقنان سادتهم وثاروا عليهم ، تحدى فيها العامة رجال الدين ورفضوا سطوتهم وسلطانهم بل تحدى الملوك سلطة الكرسى البابوية ...

وتعتبر هذه القرون مرحلة انتقال بين تربية العصور الوسطى وتربية العصور الحديثة ، بل إنها الفترة التى بذرت فيها بذور التربية الحديثة .

أولاً : عصر النهضة

قبل أن نتحدث عن التقدم التربوى فى عصر النهضة جدير بنا أن نلقى نظرة سريعة على مظاهر الحياة السائدة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر فى أوروبا :

١ — نمت السلطة السياسية المركزية للحكام فى إنجلترا وفرنسا ، وبذلك كان النظام الإقطاعى يخلى السبيل للمؤسسات المركزية أى للحكومة القومية فى الدولة . ولكن الحال فى ألمانيا وإيطاليا ظل يعج بالفوضى نتيجة انقسام كل منهما إلى دويلات وإمارات . كما أن النظام السياسى فى انجلترا وفرنسا ساعدهما على تكوين امبراطوريات استعمارية . وقد عرفت أوروبا حروباً عديدة خلال قرون النهضة الثلاثة ، ولعل أشهرها حرب المائة عام التى بدأت بين فيليب الرابع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك انجلترا ، واستمرت هذه الحروب من ١٣٣٧ إلى ١٤٥٣ ، فقد رفض ملوك فرنسا أن يكون للملوك انجلترا أية سيادة على أرض القارة الأوروبية خارج الجزر الإنجليزية :

٢ — نمت التجارة التى بدأت فى الازدهار خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت مدن إيطاليا وشمال ألمانيا مراكز هامة للتجارة ، ولكن تغيرات حدثت خلال القرن السادس عشر بعد اكتشافات فاسكودى جاما ، وكريستوفر كولمبس ، وما جلان ، فقد ظهرت آفاق جديدة للتجارة عبر المحيطات بعد أن كانت قاصرة على البحار مثل المتوسط والبلطيق والشمال . وازدهرت صناعة السفن وحرف كثيرة مرتبطة بالبحر والملاحة .

وبدأ تأثير الطبقة المتوسطة السياسى يظهر فى البرلمان الإنجليزى وفى السياسة الفرنسية وفى المدن الإيطالية الكبرى مما عكس صورة عن الثروة المتزايدة والقوة الاقتصادية النامية لدى جماعات التجار وهم الذين عرفوا باسم البرجوازيين ، والذين تجمعوا فى المدن الكبرى .

وعرف عن عصر النهضة كثرة ثورات الفلاحين الدامية ، كما ازدحمت المدن بالسكان تحت ظروف غير صحية . وانتشرت المجاعات وقتل الموت الأسود ملايين البشر . وقدأدى هذا إلى الإلحاح فى مزيد من الأيدى العاملة مما دعا إلى تحرير أعداد غفيرة من الأقنان من القيود الإقطاعية التى فرضت عليهم . وقد ثار الفلاحون فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر ، حتى تمكن معظم الفلاحين من التمتع بحريتهم فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وتحول بعضهم إلى عمال فى المدن . أما ثورات الفلاحين فى ألمانيا فكانت أشد عنفاً ، وهاجم أحد أنصارهم وهو هانز بوم سنة ١٤٧٦ نظام الضرائب والإلتزامات المفروضة عليهم . كما هاجم رجال الدين قائلا إذا كان كل الناس إخوة فعليهم أن يتقاسموا خيرات الأرض ونتاجها . وقبض عليه وحرق ، ولكن الثورة اشتعلت من ١٤٩٢ إلى ١٥٢٥ على ركيزة من التفكير الاشتراكى ومطالبة بأن تكون الغابات والمجارى المائية مشاعاً فلا تقصر على الاستخدام الشخصى لطبقة النبلاء .

٣ — نمت الحركة المضادة للبابوية خلال عصر النهضة ، فوقف فيليب الرابع ملك فرنسا وجهاً لوجه أمام البابا بونيفاس الثامن . فقد أصدر البابا

قرارات بألا يدفع رجال الدين ضرائب للملوك وألا يحاكموا أمام محاكم مدنية وأن له هو السلطة العليا على كل الحكام ، وأعلن عزل فيليب الرابع . فأرسل له فيليب جيشاً صغيراً قبض على البابا وطالبه باعتزال كرسى البابوية . ومات البابا بونيفاس بعد قليل وسقطت هيبة البابوية . ولمدة سبعين سنة احتل كرسى البابا الفرنسيون الذين يتلقون أوامرهم من فرنسا الأمر الذى لم يرض كبار رجال الدين فى روما وحدث انشقاق ثم محاولات لدرء الانقسام الدينى . ثم ظهرت زعامات دينية وحركات انفصالية خلال القرن السادس عشر منها حركة مارتن لوثر وحركة كلفن ، وعادت إلى البابوية سيادتها فى نطاق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

ومع بداية القرن السادس عشر كانت الهجمات على الكنيسة تزداد من كل اتجاه ، فالملوك والحكام يريدون بسط نفوذهم على الكنيسة ، كما ثار الفلاحون معترضين ومعهم أفراد الطبقة الوسطى على الضرائب التى تفرضها الكنيسة ، وكانوا يصيحون أن رجال الكنيسة غرتهم الدنيا والغنى والمال فأهملوا واجباتهم الدينية . ولم تعجب الكثيرين الطرائق التى لجأت إليها الكنيسة فى الحصول على المال فللغفران صكوك تباع ، وللرجل أن يقترف الخطيئة ثم يدفع قدراً من المال فيعود طاهراً كأنه لم يقترفها . . . وتعالت صيحات الاحتجاج على الكنيسة من مختلف أركان أوربا .

٤ — نمت حركة تحول الاهتمام من روحانيات العالم الآخر ومن خوارق الطبيعة إلى العالم الطبيعى ، وبدأ الناس يدرسون الطبيعة وظواهرها وأن لها قوانين تسيرها ويمكن معرفتها . وبهذا بدأ التحرر من الاتجاهات السابقة المؤمنة بقوة إلهية لا سبيل إلى إدراكها ، وبدأ العلم الحديث يأخذ شكل معتقدات وافتراضات مثل : التأكد من أن أسرار الطبيعة يمكن الكشف عنها ، الاعتقاد بأن « العلم » يعنى أننا نتعلم بملاحظتنا للطبيعة لا بأنه المعرفة التى انحدرت إلينا من الماضى . وأخيراً تطور طريقة الحصول على المعرفة وهى ملاحظة الطبيعة وجمع الحقائق والتحقق الموضوعى منها واستخدام العمليات

الرياضية ، ثم أخيراً تطبيق النتائج على الطبيعة . ولم يقدم لنا عصر النهضة تقدماً فى العلم يقاس بما حققه القرنان السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه أرسى دعائم التقدم العلمى وهز أركان السيطرة الدينية عليه ، وجعلها تسير حثيثاً فى طريق الضعف .

٥ — نمت دعوة الحركة الطبيعية التى تقول بأن للطبيعة البشرية صفات للخير متضمنة فيها . وكانت هذه الحركة تحدياً صارخاً لمذهب الخطيئة المتأصلة والتأكيد على الشر الفطرى فى الطبيعة البشرية . وقد قال البعض إن الخير ممكن بين الشعوب البدائية بدون بركات الدين والمدنية . وكانت هذه الحركة التفاؤلية عن الطبيعة البشرية ركيزة لآراء مفكرين فى العصور التالية منهم روسو .

٦ — نمت الاهتمامات بالأدب الكلاسيكى القديم ، فنقرأ عن الحركة الانسانية Humanism (١) وشغفها العميق باللغات القديمة وإدابها مع احتقارها لما عدا ذلك . ولكن الإنسانيين لم يهاجموا الكنيسة ولا الدين ولا النظم السائدة منذ العصور الوسطى ، ولم يعنوا بالبحث فى الطبيعة ، ومع ذلك فقد اهتموا بالطبيعة البشرية وبفردية الإنسان وهاجموا خضوع الفرد لمطالب المؤسسات كالكنيسة والنقابة ، ووجدوا أن الطريق إلى كمال الطبيعة البشرية هو دراسة الآداب القديمة . وظهرت تباشير حديثة ممتزجة مع روح القرون الوسطى فى « الكوميديا المقدسة » لدانتى . ومن رواد الحركة الإنسانية بترارك Petrarch الإيطالى (١٣٠٤ — ١٣٧٤) وقد أطلق عليه لقب « أول رجل حديث » وكان مفتوناً بشيشرون الرومانى وكتاباته التى مرت عليها قرون طويلة .

ومن رواد الانسانيين بوكاشيو Bocacccio الإيطالى (١٣١٣ — ١٣٧٥) الذى أبقى فى منزله يونانياً ليقرأ له أشعار هومر . وكان بوكاشيو جماعاً للمخطوطات الإغريقية وشروحها ، وكان يدرسها ويعلق عليها ، ويذكر أنه أنشأ كرسى دراسة الأدب الإغريقى فى فلورنسا عام ١٣٥٠ (١) .

---

(١) McCormic, op· cit,p.322

ومن كبار المنادين بالحركة الانسانية إيرازمس الهولندى Erasmus (١٤٦٦ – ١٥٣٦) الذى درس الآداب القديمة ودرس فى جامعة كامبردج وجامعات فرنسا وكتب مؤلفات لعل أشهرها وأهمها « تمجيد السذاجة » Praisof Folly « والمحاورات » Colloquies « والحكم والأمثال» Adages

الاتجاهات التربوية فى عصر النهضة

كان لابد أن تتأثر التربية بما أصاب المجتمع فى عصر النهضة من تغيرات جعلته مجتمعاً يختلف عن مجتمع العصور الوسطى . ويمكن القول إن التربية (الحديثة) التى حتمها مجتمع عصر النهضة تختلف جذرياً عن التربية (القديمة) فى تأويلها للفلسفة الإغريقية ، فأصبح لأفلاطون مكانة أسمى من مكانة أرسطو ، كما أفسح الطريق لدراسة آداب الإغريق والرومان على أساس أنها تعبر أصدق تعبير عن خير ما فى الإنسان والطبيعة ، واهتمت التربية الحديثة بما فى الآداب الكلاسيكية من قوة التعبير وجمال الصياغة والحرية والانطلاق . ويذكر أن من أسباب الانطلاقة الفكرية والحرية من القيود العقلية ما أنتجته الحروب الصليبية وخاصة من ناحية الاحتكاك بالشرق الإسلامى ، هذا إلى جانب ما أسهمت به الجامعات فى إذكاء للفكر المتحمس الحر الذكى المنطلق . ولا ننسى قيام الطبقة البرجوازية فى المدن الكبرى . وكذلك كان لاختراع البارود أثره فى أن جعل فى إمكان الرجل العادى أن يتحدى السلطة التى تعتمد على القوة المادية . كما أن اختراع الطباعة مكن للمعرفة أن تنتشر وألا تكون حكراً لفئة قليلة . وكانت هذه الفئة – فى العصور الوسطى – تحتكر التفكير وتقصره عليها ، ولذلك كانت هنالك وحدة فكرية تفتتت فى عصر النهضة :

وبدأ إنسان عصر النهضة يجد شخصيته التى تاهت منه فى ظلام العصور الوسطى ، وبدأ يحسن بامكانية التعبير عن نفسه . وبهذا بدأت تظهر تيارات فكرية حلت محل ركود وجمود قرون طويلة مضت . على أن هذه القيادات الفكرية لم تأخذ سبيلها المنتظم المتسق ، فقد ظهرت فى بدايتها أمواج عاتية

عالية ذات صبغة فردية متطرفة ، ثم تحولت تدريجيا إلى حركات نظامية . بل إلى أنماط من المدارس الفكرية . ويرى مرو أنه تتمثل فى عصر النهضة ثلاث نواح من الاهتمامات كانت مجهولة فى العصور الوسطى ، وأنها فتحت ثلاثة من ميادين الحياة أو مظاهرها كانت مطوية تقريباً تحت صدأ العصور الوسطى ، وهذه النواحى هى :

١ - اهتمام بالحياة الماضية الحقيقية وإمكاناتها كما عبر عنها الإغريق والرومان فى آدابهم وفنونهم ، بينما تناسى مجتمع العصور الوسطى هذه الحياة بل لم يلقوا إليها اهتماماً يذكر .

٢ - اهتمام بالعالم الشخصى وهو عالم الانفعالات والاستمتاع بالحياة وتذوق ما فيها من جمال ، وإدراك حقائق النفس /البشرية ، ويتم هذا بالمشاركة فى كل مناحى النشاط الحيوى التى تحيط بالفرد حتى يتثقف ذاتياً . وقد أهملت العصور الوسطى هذا الاهتمام ، بل جهلته .

٣ - اهتمام بالعالم الطبيعى ، فقد أهملت العصور الوسطى هذا العالم بل رأت المسائل الطبيعية غير جديرة بأى اهتمام .

وقد أدت هذه الاهتمامات الثلاث إلى اتجاهات نحو التثقيف الذاتى والنمو الشخصى ومحاولة الوصول إلى تربية مركزها النفس البشرية ، وإلى الاهتمام بالحياة الدنيا .

كما أدت هذه الاتجاهات إلى بعث للفلسفة الإغريقية وإعادتها إلى الحياة بعد ما أضفاه عليها الشراح من فلاسفة العرب ، وخاصة فلسفة أرسطو . وكان الاهتمام موجها إلى مبادىء أرسطو الطبيعية أكثر من الاهتمام بالجزء الخاص فى فلسفته عما وراء الطبيعة . ويتميز عصر النهضة بالعناية بالناحية الفردية وبالميل إلى الحقيقة المادية ، ومن ثم إلى الناحية الجمالية .

المدلول التربوى للنهضة : الحركة الانسانية

فى إيطاليا : كتب أحد أساتذة جامعة پادوا رسالة فى التربية عام ١٣٧٤ صور فيها الهدف من التربية ، فقال إننا لا نطلق على الدراسات اسم الدراسات

الحرة إلا إذا كانت جديرة بالرجل الحر ، وبها يمكن أن ندرك الفضيلة والحكمة ونمارسهما . وفى رأيه أن هذه هى التربية التى تعمل على استدعاء وتدريب وتنمية أعظم المواهب العقلية والجسمية التى تشرف الإنسان . ويرى فيرجيريو Pierpaolo vergerio أن الغرض من الحياة لدى صاحب المزاج العادى هو اللذة والكسب ، وأما صاحب الطبيعة الراقية فيهدف إلى القيم الخلقية والشهرة (١) .

وفيرجيريو إيطالى من أنصار الحركة الإنسانية ، وزامله فى المناداة بهذه الاتجاهات الإنسانية وتأييدها فى إيطاليا فيتورينو Vittorino وسيليفياس Sylvius وكاستيليونى Castiglione . وغيرهم . وقد تكون بينهم اختلافات ولكنهم يشتركون فى أن أهداف التربية هى (إنتاج (الفرد صاحب الثقافة الواسعة ذى الشخصية المتزنة المتكاملة ، القادر على تبوء القيادة فى الكنيسة والدولة . وعليه أن يلم بالأدب الكلاسيكى ، وأن يكون فى نفس الوقت إنساناً مسهماً فى مجتمعه ، قادراً على أن يعبر عن نفسه بالشعر ، مستطيعاً الغناء والرقص ، يتمتع بصحة جيدة ، وأن يكون مسيحياً مهذباً (٢).

وأما عن تعليم البنات ، فقد رأوا أن المرأة المثالية هى التى تتحلى بالصفات التى تناسب تلك الشخصية الذكرية التى هدفوا إليها ، ولكنهم لم يعطوا أسلوباً منهجياً لإعداد مثل هذه المرأة .

ولعل تحليلا لمقومات تربية هذه الشخصية التى هدف إليها الإنسانيون Humanists ترينا أنهم ضمنوها كل القيم الممكنة ، فهذه الشخصية قادرة فى الأدب والفن والحياة الاجتماعية . . . ولم يعن الإنسانيون ، على عكس التربية القديمة ، عناية كافية بالرياضيات والتاريخ الطبيعى . . . وأهملوا تماماً اللغة الدارجة . ودرسوا التاريخ والأخلاق من كتابات القدماء أنفسهم .

أما عن طرق التدريس فقد اهتموا بالحفظ والاستظهار ، ولكنهم فضلوا

---

(١) McCormick, op. cit., p. 326

(٢) Butts, op. cit., p. 227

أن يفهم الطالب القواعد أثناء دراستها . بل اهتم الإنسانيون بما بين التلاميذ من فروق . ولكنهم لم يتركوا ما يستدل منه عن كيفية تطبيق هذا على دراسة أدب شيشرون أو فرجيل . ونصح الإنسانيون بالتقليل من العقوبات البدنية ، وحرصوا على تشجيع تنافس التلاميذ فى عملهم لاكتساب إعجاب المجموعة

ومع تقدم الإيطاليين فى فن المعمار وهندسة البناء والزخرفة . فان الحركة الإنسانية فى التربية لم تسهم بشىء يذكر فى هذا السبيل ، فلم تكن هذه من الفنون العقلية الحرة فى نظرها .

فى فرنسا : على أن حركة الإنسانيين الإيطاليين وهم رواد حركة النهضة تخطت الحدود الجغرافية وانتشرت فى أنحاء أوروبا حاملة معها شعلة التفكير الحر . وقد زار بترارك الإيطالى باريس عام ١٣٦١ م ، وقد صاحبه فى الزيارة قس فرنسى . ويذكر أن المخلفات الأدبية الكلاسيكية ترجمت إلى الفرنسية فى أيام حكم شارل الخامس (١٣٦٤ — ١٣٨٠) . وكان Jean de Montreuil (١٣٥٤ — ١٤١٨) أول الإنسانيين الفرنسيين ، وكان مبعوثاً ملكياً فى روما ، وصديقاً لعديد من الإنسانيين الإيطاليين .

وكان لجامعة باريس دور فى الحركة الإنسانية . فقد درست بها كتابات الكلاسيكيين ، كما عين بها أستاذان لتدريس الإغريقية . كما أن انتشار الطباعة ساعد على قراءة المخلفات الكلاسيكية . وكان أول كتاب طبع فى فرنسا فى عام ١٤٧٠ هو (خطابات جازبارينو دى بارزيرا Gasparino de Barzizza)(١) وهو أحد الإنسانيين الإيطاليين الأوائل .

وتؤرخ الحركة الإنسانية فى فرنسا منذ القرن السادس عشر ، ومن روادها وحملة لوائها Guillàume Budé زميل ايرازمس . وقد درس بودية القانون ثم اتجه إلى الآداب ، وعلم نفسه اليونانية ثم اللاتينية .

وأشهر مقالاته التربوية التى ظهرت بالفرنسية هى De l'Institution du Prince (تربية الأمير) ، وقد وجهها للملك الصغير فرنسيس

---

(١) McCormick, op. cit., p. 346

الأول ، لتهذيبه الشخصى وتذوقه الأدبى ، وفى نفس الوقت ليحمى الأدبا ويرعاهم .

ولعل أشهر مؤلفى فرنسا فى عصر النهضة هو رابليه Rabelais الذى سخر من مدارس عصره ووصفها ناقداً فى صورة كاريكاتورية ضاحكة فى مؤلفه Gargantua et Pantgruel وكتبه بالفرنسية ، وساعدت الطباعة على انتشاره . وقد سخر رابليه من غلبة الشكلية على المدارس الإنسانية ، كما تهكم على التربية (القديمة) ، وقارن بينها وبين الاتجاهات الواقعية (الحديثة) .

وقد عضد الكلاسيكيات ، ولكنه أصر على ضرورة توجيهها للسلوك ، فلا تقتصر على النواحى اللغوية والأدبية : وقد اقترح رابليه منهاجا اشتمل على مواد كثيرة ، منها اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والعربية ، والنحو ، والحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية ، والتربية البدنية . . . .

فى انجلترا : ظهر من أبنائها رواد فى الحركة الإنسانية منهم ليناكر Lincare وتشيك Cheke وليللى Lilly وكوليت Colet وآسكام Ascham الذى كتب رسائل عن التربية باللغة القومية : وقد خلف آسكام أستاذه تشيك فى كرسى اللغة اليونانية فى جامعة كمبردج . كما عين مثقفاً للأميرة اليزابيث قبل أن تصبح ملكة . وقد كتب آسكام رسالة فى التربية سماها المعلم The School Master . وملخص فكرته عن التربية أنها ثقافة تهدف إلى غرس الفضيلة والتهذيب الخلقى والكفاءة العملية . وترى أن الوصول إلى هذه الأهداف يكون عن طريق الأدب . وقد عارض آسكام فى استخدام العقوبات البدنية إلا فيما يتعلق بالهفوات الخلقية .

ومن رأى آسكام أن التقليد والتكرار مهمان . ويرى أن يكرر الدرس حتى يتمكن منه المتعلم . كما رأى أن يتعلم المتعلم أولا لغته القومية (الإنجليزية) ثم يترجم الإنجليزية إلى اللاتينية ثم يعود فيترجم إلى الإنجليزية .

ومن رجال عصر النهضة الإنجليزية السير توماس اليوت Thomas Elyot

الذى ترجم مؤلفات بلوتارك الكلاسيكية وايسوقراط إلى الإنجليزية . ولإليوت كتاب بالإنجليزية عنوانه (هكذا)Boke Named the Governour لتعليم رجال السياسة اللغة اليونانية واللاتينية والبلاغة والمنطق والهندسة والفلك والموسيقى والتـاريخ والجغرافية والرسم والنحت والتربية البدنية . ونلاحظ فى كتابه إنه لم يتمسك بجمود جماعة الإنسانيين ، فقد غلب على الكتاب الشمول لجوانب عديدة من المعرفة (١) .

ويتضح من الاتجاهات الإنسانية فى بعض المناطق الأوروبية التى تخيرتها أن الأدب الكلاسيكى أصبحت له الصدارة . وأصبح الشخص المثقف هو الدارس للآداب الإغريقية واللاتينية ، و(الجنتلمان (هو من ألم بهذه الآداب. على أن الحركة الإنسانية لم تقف عند حد تعلم هذه الآداب فقد هدفت التربية فى نظرهم إلى إعداد الأفراد لحياة مدنية ليكونوا فى خدمة الدولة والكنيسة والنبلاء وكبار التجار . هذه التربية للخدمة العامة يجب أن تبدأ بأرضية سميكة غنية من الأدب الكلاسيكى . وأصبح المعنى الجديد للتربية العقلية الحرة يشمل إلى جانب الأدب . التربية البدنية والجمالية والخلقية والاجتماعية .

ومع أن الحركة الإنسانية أحيت الآداب القديمة . ونادى روادها بآراء تربوية هامت الإجراءات التى كانت سائدة أيام عصر النهضة ، إلا أن بعض الاتجاهات الإنسانية لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ . ويتكلم مرو عن التربيـة الإنسانية القاصرة فيقول: إن الاهتمام بالتربية الحرة الذى شمل الأهداف ومظاهر النشاط الملائمة للجنس البشرى والذى اتخذ ركيزته أساساً دراسة الآداب واللغات القديمة سرعان ما تغير حتى أصبحت دراسة الآداب القديمة فى القرن السادس عشر تعتبر غاية فى حد ذاتها ، بعد أن كانت مجرد وسيلة من قبل . وصار يقصد من المواد الإنسانية لغات القدماء وآدابهم ، وبذلك أصبح التفكير فى الهدف من التربية منصباً على دراسة الآداب بدلا من

---

(١) Eby, Frederick : The Development of Mcdern pEucation, p. 95 .

دراسة الحياة ، واتجهت الجهود التربوية نحو التمكن من هذه الآداب ، بل صارت الناحية الشكلية من هذه الآداب ذات أهمية كبرى بدلا من محتواها .

مع هذه الشكلية انحصر استعمال معنى المواد الإنسانية على اللغتين الإغريقية واللاتينية وآدابهما ، بل ضاق معنى « التربية الإنسانية » حتى أصبح يقصد منها ذلك النوع من التربية المطابق لمعنى « المواد الإنسانية » . وغلبت النواحى الشكلية فى طرق التدريس بالمدارس ، مع هذه التربية الإنسانية القاصرة ، فأصبح معظم الاهتمام موجهاً لدراسة قواعد اللغتين القديمتين والتدريب عليها دون مراعاة طبيعة الطفل وميوله . فالطفل فى رأى المربين ، وقتئذ ، رجل صغير لا يختلف عن الرجل الكبير الراشد فى ميوله وقواه العقلية إلا من حيث الدرجة . ولذلك فهو يكلف عند أول قدومه للمدرسة بمعرفة لغة أجنبية ، حتى ولو لم يتعلم لغته القومية ، وسبيل تعلمه هذه اللغة غاية فى الشكلية ، فهو يقوم على دراسة قواعد اللغة والبيان واستظهارها . ولهذا فكانت لقوة التذكر ، وهى واحدة من قوى العقل ، أهمية عظمى .

معاهد التعليم

على الرغم من تأثير الحركة الإنسانية ، إلا أن عدداً قليلا من المدارس العامة التى تعلم اللغات الدارجة نجحت فى اجتذاب تلاميذ يتعلمون فيها القراءة والكتابة باللغة الدارجة . وكان التلاميذ يتعلمون أيضا مبادىء العد والحساب. على أن هذه المدارس كانت دائما تحت مطارق النقد التى وجهها إليها الإنسانيون مركزين على اتهامهم بأنها ليست عقلية المحتوى ، وأنها لا تدرب العقل . ولكن هذه المدارس العامة استمرت فى عملها ، بل بدأت تجذب أعداداً أكبر حتى شقت طريقها بثبات خلال عهد الإصلاح الدينى . ثم أصبحت هذه المدارس جزءاً من الأنظمة القومية للتربية .

أما عن المدارس الثانوية الحديثة فى عصر النهضة فقد تطورت عن المدارس الموجودة بعد أن حلت اللغة اللاتينية القديمة محل لاتينية العصور الوسطى ، كما استبدلت دراسة البيان الشكلية بالدراسات الكلاسيكية الأدبية وحلت

العلوم الرياضية محل الحوار المنطقى ، وأضيفت اللغة اليونانية القديمة ، وأحيانا اللغة العبرية .

أما عن التعليم العالى فله قصة . ففى إيطاليا عارضت الكنيسة والجامعات الآداب الكلاسيكية فى أول الأمر ، وصدوا أبوابها عنها إلا فيما يتعلق بما نهجوا عليه فى القرون الوسطى ، بينما شجع البلاط هذه الآداب . ونفس القصة تكررت فى فرنسا فكان البلاط الملكى من أوائل المؤيدين للحركة الإنسانية . فقد وجدت جامعة باريس ، فى أول الأمر ، أن الحركة الإنسانية تهدد مصالح الأفراد المهتمين باللاهوت والدين وفلسفة أرسطو .

ومع تقدم الحركة الإنسانية فى إيطاليا وغزوها جامعات شمالها فى القرن الخامس عشر بدأت تشق طريقها رويداً رويداً فى فرنسا ، حتى استطاع الملك فرنسيس الأول تأسيس Collegede France ، وكان بهذه الكلية كراسى أساتذة لليونانية القديمة والعبرية واللاتينية والفرنسية والقانون والفلسفة والرياضيات والطب .

أما فى ألمانيا فقد أسس أول كرسى لحركة التعليم الحديثة « كرسى الشعر والخطابة » فى جامعة أرفرت Erfurt فى نهاية القرن الخامس عشر ، كما أن جامعة وتنبرج Wittenperg سارت على مبادىء النهضة منذ بدء إنشائها .

وفى انجلترا لم تسمح السلطات فى جامعتى كمبردج وأكسفورد بالدراسات الإنسانية إلا فى مستهل القرن السادس عشر ، وخاصة بعد زيارة إيرازمس لجامعة أكسفورد عام ١٤٩٨ ، كما كان له الفضل فى التطوير الذى حدث بجامعة كمبردج التى درس بها مدة أربع سنوات من عام ١٥١١ م .

* * *

وكلمة ختامية عن عصر النهضة تلح لتوضيح حقيقة موقف الإنسانيين من مدلول التقدمية والتقليدية . فمع سنى النهضة الأولى وظهور الحركة الإنسانية ثائرة غاضبة على ما خلفته العصور الوسطى ، كان ينظر لأنصار الحركة على

أنهم تقدميون ، وكان الإنسانيون يبنون موقفهم التقدمى على مبادىء وأسس قتنعوا بها وهى :

١ — أهمية نمو الإنسان كفرد ؛

٢ — ضرورة العناية بطبيعة واهتمامات المتعلم فى تربيته ؛

٣ — ضرورة تحرر الفرد من ظلمة وجهالة العصور الوسطى ؛

٤ — ضرورة تقديم دراسات واقعية للمتعلم ؛

ورأى االإنسانيون أن الدراسات الكلاسيكية فى الأدب والشعر والخطابة كفيلة بتحقيق هذه المبادىء .

ومن العجيب أن نفس هذه المبادىء والأسس نادى بها أنصار التقدمية الجديدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى صيحاتهم المدوية ضد منهج الإنسانيين الذين وصفوا حينئذ بالتخلف والجمود والقدم ، واتخذ أنصار التقدمية الجديدة الدراسات الاجتماعية والعلمية أسلحة يحطمون بها منهج الإنسانيين . وإذا كان هذا المنهج قد حقق فوزاً رائعاً على مناهج العصور الوسطى التى طمرتها أجيال طويلة بالصدأ المتراكم ، فان نفس المنهج لم يعد صالحاً لمجتمع ما بعد الثورة الصناعية . ومع أن المبادىء والأسس لم تتغير ، لكن العقلية تغيرت تبعاً لما طرأ على المجتمع من تغيرات عنيفة . وأصبحت الحركة الإنسانية التى كانت تقدمية فى عصر النهضة ، أصبحت اتجاهات تقليدية قديمة لا تناسب ما حققه المجتمع من تطورات وتغيرات .

كانت الحركة الإنسانية فى بداية عصر النهضة تقدمية ، وأدت أهدافها لحقبة من الزمن . وما عادت صالحة فى عصر آخر .

وقبل أن نقفز إلى مجتمع ما بعد الثورة الصناعية ، جدير بنا أن نقف قليلا عند حركة الإصلاح الدينى .

ثانيا ـ حركة الإصلاح الدينى

نحدثت عن حركة الإنسانيين وتأثيرها على الاتجاهات التربوية والاجتماعية بعد القرن الرابع عشر الميلادى . وثمة عوامل أخرى عملت على تشكيل العقلية الغربية ، فقد بدأ فينيسى إسمه آلدس فى استخدام اختراع جديد لإنتاج كتب ، وهو اختراع الطباعة ، وقد عملت اختراعات البوصلة والعدسات واستخدام البارود على تغير عادات البشر .

وكان لنشاط المدن الإيطالية الخارجى أثره فى رفع مستواها الاقتصادى ، فقد خرجت من مدينة البندقية وجنوا المراكب تجوب شرق البحر المتوسط . وتحمل من موانى يافا وبيروت والاسكندرية المنتجات الشرقية . وقد سبق عصر النهضة بوقت ليس طويلا مغامرة ماركو بولو فى أواخر القرن الثالث عشر ، فعقب عودته من الشرق الأقصى أذهل الأوروبين بوصفه سحر الشرق وأسواق التوابل . وقد سال لعاب الأوروبيين لما سمعوه عن وفرة الذهب فى الشرق وغزارة التوابل والفخامة التى يرتع فيها أهل تلك البلاد . ولعل بعضنا يتساءل عن سر اهتمام الأوروبيين بالتوابل ، فقد استخدموها فى حفظ الطعام ، بل استخدموها أيضاً لتغطية رائحة ومذاق الطعام الفاسد . وحاول الأوروبيون الوصول إلى الشرق دون أن يتعرضوا لمضايقات المماليك فى مصر . فداروا حول أفريقيا ، وأبحروا غرباً على أمل الوصول إلى الهند على أساس كروية الأرض . وبدلا من الوصول إلى الهند أكتشفوا أمريكا على يد كولمبس عام ١٤٩٢ . وباكتشاف أمريكا بدأت سلسلة من النزاعات بين القوى الأوروبية العظمى فى ذلك الوقت : انجلترا ـ فرنسا ـ أسبانيا ـ البرتغال .

ولم تكن أسباب النزاعات سياسية واقتصادية فقط ، كما لم تقتصر النزاعات على الدول ، بل شهدت أوروبا نزاعاً خطيراً أساسه الدين ، فقد ثارت غرب أوربا ضد البابان وظهرت الكنائس المحتجة على الكنيسة فى روما

وظهر البروتستانت فى انجلترا وهولندا والدنمارك والنرويج والسويد وشمال ألمانيا ، وانقسمت أوروبا إلى بروتستانت محتجين على البابا الكاثوليكى . وظل موالياً للبابا إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وجنوب ألمانيا والنمسا .

وقد بدأت الثورة الدينية فى ألمانيا ، وكان الألمان يدفعون مبالغ ضخمة للبابا بل كان على الأساقفة الألمان إثر تعيينهم فى وظائفهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة للخزانة البابوية ليحصلوا على تأييد البابا . ولم يعجب بعض قادة الألمان تدخل البابا فى هذا التعيين ، كما إن كتابات إيرازمس وخاصة فى مؤلفه « تمجيد السذاجة » سخرية من هذا التدخل البابوى . وكان إيرازمس يعتقد دائماً أن هذه التصرفات البابوية لن تجد قبولا عند الناس عندما ينالون قسطاً كافياً من التعليم .

وفى عام ١٥٢٠ كتب مارتن لوثر Luther الأستاذ بجامعة وتنبرج كتيباً Anaddress to the Ger man Nobility طلب فيه من الحكام الألمان إصلاح الكنيسة ، فقد وجد استحالة هذا الإصلاح عن طريق البابا ، وأظهر تجسراً على المبالغ التى تدفع للكنيسة الرومانية وطالب بتقليل عدد أيام العطلات الكنسية وفى الأديرة والسماح لرجال الدين بالزواج (١) .

وهاجم البابا ليو العاشر مارتن لوثر وآراءه ، ولكن الأمراء الألمان عضدوا موقف لوثر رافضين تدخل الكنيسة فى شئونهم : وأمام مجلس عقد فى ورمز سنة ١٥٢١ اعترف لوثر بمهاجمته الكنيسة . واعتبر لوثر مارقاً على الكنيسة ومهدداً لها وللدولة . وطلب أعضاء المجلس الذى دعا إليه شارل الخامس فى ورمز أن تمتنع الناس عن إعطاء لوثر طعاماً أو شراباً أو مأوى ، وصدر أمر بالقبض عليه . ولم يعر أحد التفاتاً إلى قرار ورمز هذا . فقد هرب لوثر وتحصن فى قلعة بمدينة ورتبرج تحت حماية الأمير المنتخب . ثم بدأ ترجمة جديدة للإنجيل إلى الألمانية .

---

(١) Robinson, J. H. and Smith, E. P. : Our World today and Yesterday, p. 106.

واندلعت الثورة الدينية ، وترك عدد كبير من الرهبان والراهبات الأديرة وتزوجوا . ومزق الطلبة والمواطنون صور القديسين فى الكنائس ، بل توقفوا عن بعض الصلوات الدينية التى تعتز بها الكنيسة الكاثوليكية . ولكن لوثر ثار ضد هذه التصرفات ، وخرج يعلن أن أية تغييرات فى الإجراءات الدينية يجب أن تبدأ بها الحكومة لا الشعب . واستمع الحكام لأقوال لوثر لأنهم وجدوا فيها فرصة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة ، كما استمع الفلاحون لآرائه لأنها وضعت الكتاب المقدس بين أيديهم ولم يجدوا فيه ما يحتم عليهم دفع إتاوات لسادتهم .

وفى عام ١٥٢٥ ثار الأقنان . وباسم (عدالة الله) هوت قلاع وأديرة وقتل مئات من النبلاء . ولكن جماعة من النبلاء انتقموا أشد انتقام من الفلاحين فقتلوا منهم مائة ألف فلاح . وقد وقف لوثر إلى جانب الأمراء ضد الفلاحين ولكنه لم يقل بقتل الثائرين وإنما نصح باستعمال القوة والقسوة مما أغضب إيرازمس . واستمرت الحروب الداخلية مائة عام فى ألمانيا ، مما أضعف قواها .

وإذا تركنا ألمانيا إلى سويسرا وجدنا الحركة البروتستانتية يتزعمها زونجلى Zwingli وكلفن Calvin. فقد قاد زونجلى حركة تمرد دينية وسيطر على زيورخ ولكنه قتل فيها ، وخلفه كلفن الذى كتب رسالة إلى فرنسيس الأول ملك فرنسا يبرر فيها الحركة البروتستانتية ، ومعتمداً كل الاعتماد على ما جاء فى الإنجيل ، فهو مثلا يرفض استخدام الأرغن والنوافذ ذات الزجاج الملون فى الكنائس لأن الكتاب المقدس لم يذكر عنها شيئاً (١) .

وانتشرت الحركة الكلفنية من جنيف إلى ألمانيا . ثم تغلغلت فى فرنسا حيث عرف أتباعها باسم الهيجنوت Hugenots، ثم فى الأراضى المنخفضة ثم فى إنجلترا بين المتطهرين Puritans ، وفى اسكتلندا بين البرسبيتاريين Presbyterians وقد هاجر عدد كبير من الكلفنيين من مختلف هذه الطوائف إلى أمريكا .

---

(١) Butts, op. cit., pp. 240 - 241.

وكان لحركة الإصلاح الدينى أثرها فى البناء الاجتماعى والتربية ، أما عن البناء الاجتماعى فقد انتقل فيه مركز الثقل بحيث توزعت القوة بين الطبقات ، بل إن الطبقة الوسطى استخلصت لنفسها مكانة أخذت تتزايد عبر الأجيال .

وقد انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متميزة (١) :

١ — الطبقة الريفية وتنقسم إلى :

(أ) النبلاء ، وهم من كبار ملاك الأراضى ولهم حظوة وامتيازات عند الملوك .

(ب) الجنترى ، وهم من كبار ملاك الأراضى ، ولكن لا يتمتعون بالاحترام والمكانة الاجتماعية التى ينالها النبلاء .

(ج) الفلاحين الأحرار ، ويمتلكون مساحات محدودة من الأرض .

(د) المستأجرين ، والشغالين فى الأراضى ، والأقنان ، وهؤلاء يعلمون تحت إمرة غيرهم .

٢ — سكان المدن وينقسمون إلى :

(أ) كبار التجار وأصحاب الأعمال وهؤلاء تملكوا معظم الثروات واستأجروا عديداً من الموظفين يعملون لهم .

(ب) صغار التجار وأصحاب المهن . وهؤلاء يتمتعون بالاستقلال فى كسب العيش ، ولهم مركز اجتماعى محترم .

(حـ) العمال الفنيين ولهم مكانتهم بحكم مهارتهم فى أعمالهم .

(د) الشغالين .

٣ — طبقة رجال الدين :

(أ) كبار القساوسة ، ولهم مكانة سامية كمكانة النبلاء وكبار التجار .

(ب) صغار القساوسة ، ولهم بحكم التقاليد نفوذ و مكانة محترمة .

---

(١) Butts, op. cit., p. 236

المدلول التربوى لحركة الأصلاح الدينى

الأصل فى حركة الإصلاح الدينى أنها احتجاج صارخ على قصر سيطرة الكتاب المقدس على المسائل الدينية ، واحتجاج على سيطرة رجال الدين ، ورغبة فى تحكيم الفرد عقله فى تفسير الكتاب المقدس . وقد انقسمت حركة الإصلاح الدينى إلى ثلاثة تيارات رئيسية (١) :

١ ــ الاتجاه العلمى والفلسفى الذى لم يبد واضحاً إلا فى القرن السابع عشر

٢ ــ الاتجاه الإنسانى المتأرجح بين الناحيتين التقدمية والتقليدية .

٣ ــ الاتجاه اللاهوتى :

وقد اقتنع قادة الإصلاح الدينى بضرورة ووجوب تفسير الكتاب المقدس تبعاً لما ترتضيه عقلية الفرد ، ولكنهم وجدوا من الصعب عليهم إقناع غيرهم بهذا ، ولذلك لم تبذل جهود إيجابية فى تنمية القوى العقلية والتفكيرية والدينية ، والمسائل الدنيوية ، ونظم الحياة الاجتماعية . وحقائق الطبيعة .

ولكن غلبت على التربية الناحية الشكلية التى تمت نتيجة لسيطرة الجامعات اللاهوتية من لوثرية ، وكلفنية ، وزونجلية وغيرها وغيرها... وكثرت الطوائف المتنازعة ، وظهرت عقائد مختلفة . وتأثرت التربية بهذه الانقسامات الشكلية الضعيفة . ويمكن تلخيص مبادىء التربية البروتستانتية فى :

١ ــ الاهتمام بالمواد الإنسانية ، فهذه تقوم على دراسة اللغات الكلاسيكية وهذه الدراسة تتيح للدارس قراءة ودراسة الكتاب المقدس وكتب الآباء بلغتها الأصلية .

٢ ــ تأسيس نظام من المدارس على فكرة « التربية العامة » ، وهذا النظام مبنى على ما رآه زعماء حركة الإصلاح الدينى من أن السعادة الأبدية لكل فرد تتوقف على تحكيم عقله فى تعاليم الوحى التى تضمنها الكتاب المقدس . ولكى يتفهم البروتستانتى تعاليم الإنجيل ويتمرن على تحكيم عقله ، كان لابد له من

(١) منرو (المرجع الأسبق) : ص ٦٤ ــ ٦٩

دخول المدرسة ؛ وبذلك أصبحت للمدرسة وظيفة جديدة . وأصبح لزاماً أن تفتح مدارس كثيرة لتقبل آلاف الأطفال .

٢ — تهدف التربية فى نظر البروتستانتيين إلى تنمية المعتقدات الدينية وزيادة ميل الطفل وحبه للكنيسة ، لأنه سيترتب على ذلك سعادته الأبدية ؛ ولهذا فكان محور الدراسة هو الدين والإعداد اللغوى .

٤ — يقوم على إدارة المدرسة إما كبير الكنيسة ، وإما الدولة والكنيسة معاً ، وتميزت هذه الإدارة بالحزم الشديد واحترام السلطة والتقاليد وخضوع التلاميذ لها خضوعاً تاماً .

ولكى نلقى بعض الأضواء على التربية فى القرن السادس عشر ومدى تأثرها بحركة الإصلاح الدينى ، نتناول واحداً من زعماء هذه الحركة ونعرض بعض رائه وخاصة المرتبطة بالتربية والتعليم .

مارتن لوثر

وقد أثر مارتن لوثر على التربية ، وقد عرفناها خاضعة للكنيسة طوال العصور الوسطى ، ثم بدأ تدخل الأمراء فى السنوات الأخيرة من هذه العصور فى شئونها ، وشاركهم فى هذا التدخل حكام المدن والنقابات . ولم يعجب هذا التدخل رجال الكنيسة . وقد تعرضت المدارس والإشراف عليها والمناهج لهجوم عنيف ، فقد شكا كبار التجار مثلا من عدم قيمة ما يدرسه أولادهم فى المدارس ، وأنه غير عملى . وظهرت أول بوادر التربية المهنية فى المدن الكبرى

وضعت الحركتان الإنسانية والإصلاح الدينى المسمار الأخير فى نعش السيطرة الكاثوليكية على الأجهزة التعليمية (١) ولما كانت النزعة موجهة إلى مركز التعليم ، فقد أصبحت الفرصة سانحة أمام البروتستانت لأن يطلبو من الحكومات ، على مستوى الدولة ومستوى المدينة ، أن ينظموا المدارس ويجعلوا منها ركائز للمجتمع البروتستانتى (٢) .

(١) قام الكاثوليك بحركات مضادة .

(٢) Ulich, op. cit., pp. 121 – 129

وفى سبيل هذا كتب لوثر رسالتين ، إحداهما موجهة إلى النبلاء المسيحيين فى الأمة الألمانية ، والثانية موجهة إلى أعضاء مجالس المدن فى ألمانيا .

ومن أهم آراء لوثر فى التربية :

١ — يرى أن معنى التربية وهدفها هو مساعدة الفرد على فهم التزاماته الاجتماعية التى تجعل فى الإمكان تحقيق مجتمع مسيحى سليم . ويتحقق مثل هذا المجتمع إذا عرف المواطنون الله وأطاعوه ، وإذا قدروا واحترموا الكرامة البشرية بالنسبة لأنفسهم ولغيرهم .

٢ — يرى لوثر أن عمل المدرس متواضع ولكنه خطير الأهمية ، وأن عمله مقدس ، فهو مفوض لنشر الروح المسيحية بين الناس . ويتم له ذلك إذا وجد نظام إجبارى لتعليم كل الأطفال . وبهذا يتكلم لوثر عن تدخل السلطات المدنية فى الإشراف على المدارس . ويقول أيضاً إن بعد انتشار هذه المدارس فى القرى والمدن ، يختار أنبه التلاميذ ليدخلوا الجامعات ، ويختار أحسن الخريجين ليتولوا المناصب الهامة . وبهذا تتغير فكرة الناس عن التعليم ، وسوف يرى الأب أن لابنه المتعلم مركزاً يكفل له حياة سعيدة .

وفى المدارس الابتدائية يتعلم الأطفال القراءة والكتابة والحساب والدين والموسيقى الدينية ، واللغة اللاتينية ، وكان تعلم اللاتينية ضرورياً لأنها لغة الكتابة فى الوظائف الفنية .

٣ — يرى لوثر أن وظيفة التربية أكثر من مجرد الاهتمام بالناحيتين الدينية والعقلية ، فعليها أن تهتم بالفرد فى نموه الجسمى ونموه الانفعالى كذلك . ويتفق لوثر مع أفلاطون فى أهمية الموسيقى لانفعالات الإنسان . ويرى أن الموسيقى هبة من الله ، وتأتى فى مرتبة تالية مباشرة لهبة الدين . ويلح فى ضرورة تمرين الشباب على الموسيقى فهى تخلق منهم أفراداً نبهاء صالحين .

٤ — فيما يختص بالتعليم الأعلى من المدارس الابتدائية (أى المدارس الثانوية) ، فهو يقترح منهاجاً شبيهاً بمنهاج الإنسانيين فى تأكيده على اللغات القديمة ، ولكنه يرى أن يكون مكانها فى المنهاج ثانوياً ، إذ أنه هدف إلى

إعداد شباب مسيحى مثقف واع قادر على تفهم ما حوله فى ذكاء .. ويكون ذلك بتعلم الدين . وما كان يهمه تعلم اللغات القديمة لدراسة الأدب القديم ولكن لفهم المسيحية كما يجب أن تفهم . !

ويوضح لوثر فلسفته التربوية المتمركزة حول المسيحية فيقول : « إنى أرغب فى عديد من الشعراء واللغويين ، ولكن لا لمصلحة اللغة اللاتينية وأشعارها ونحوها وبيانها ، وإنما لتكون دراستهم للآداب القديمة طريقاً للوصول إلى الصدق المقدس الذى يهديهم سواء السبيل :

٥ — عاب على طرائق التدريس ، فيقول مثلا إن المتعلمين كانوا يقضون عشرين عاماً ليتعلموا اللغة اللاتينية ثم يصبحون قساوسة ويعظون الناس .. وهؤلاء القساوسة جهلة كبار ، لا يصلحون حتى لأن يضعوا بيضاً أو يصيحوا كما يصيح الدجاج . ولذلك فمن خلال كتاباته نلمح اتجاهاً نحو ربط المدرسة باحتياجات الناس ، ولذلك فهو يشرك الراشدين فى العملية التربوية ؛ فتفتح مكتبات حتى تيسر للناس القراءة والمعرفة عن الله وعن الطبيعة وعن الوطن وكان لوثر يتكلم بهذا الرأى فى وقت سار فيه العمل المدرسى من الكتب إلى العصى (الفلقة) .

٦ — يقدر لوثر عمل المدرس ، فيقول : « إننا لن نجزى هذا الشخص المثابر — المدرس أو المهذب — الجزاء الأوفى : فأى مقدار من المال لن يوفى له دينه الذى فى أعناقنا — هكذا قال غير المتدين أرسطو ، ومع هذا فنحن نعامل المدرسين بكل احتقار ، وكأنهم فئة لا قيمة لها ولا اعتبار ، ثم ندعى دائماً أننا مسيحيون مؤمنون . إنى من ناحيتى لو أكرهت على ترك مهنة الوعظ لأدخل فى أى مهنة أخرى . فأنا لا أعرف مهنة ينشرح لها صدرى أحسن من أن أكون مدرساً — أو معلماً للصبيان . لأنى أعتقد أن مهنة التعليم تلى مهنة الوعظ فى فوائدها ، وفى خدمتها للعلم . وفى الحقيقة إنى أحار فى بعض الأحيان فى أيهما أشرف من الأخرى . لأنك لن تستطيع تعليم كلب هرم نوعاً جديداً من الحيل . كما أنه من الصعب أن نصلح مدمنى الإجرام . هذا هو

ما نحاول أن نفعله فى مهنة الوعظ . وكثيراً ما تذهب جهودنا هباء . ولكنه من السهل أن ترى الأشجار الصغيرة ، ولو أن بعضها قد ينكسر فى بعض الإحيان فيا صديقى إنك لن تجد فى أى بقعة من الأرض فضيلة أعلى من تلك التى يتحلى بها الرجل الأجنبى الذى تعهد إليه بأولادك فيربيهم باخلاص وأمانة ، انه لعمل قلما يعمله الآباء لأولادهم (١) » .

اتجاهات فى المؤسسات المشرفة على التربية

أثرت حركة الإصلاح الدينى على شكل ومضمون التربية مما ألقى ظلالا مازالت مؤثرة فى كثير من أنظمة وفلسفات التربية فى العالم الغربى اليوم ، ومن أهم هذه الاتجاهات :

أولا : الاقتناع بضرورة أن تنال الطبقات الدنيا تعليماً ، ولكنه تعليم لا يصل إلى مستوى ما تناله الطبقات الأرقى . وبذلك انفسح الطريق لثنائية فى التعليم . نوع للقفراء وآخر للقادرين ، والأول يظهر فى المدرسة الأولية ذات التعليم باللغة الدارجة والثانى يظهر فى المدرسة الثانوية الكلاسيكية . ولم يوافق بعض زعماء حركة الإصلاح الدينى على فكرة تعليم جماهير الشعب وخاصة فى الطبقات الدنيا .

ولا ينفى هذا قولنا بأن بنور ديموقراطية التعليم بالمفهوم الحديث وضعت بذور صيحات الإصلاح الدينى . فقد أعلن لوثر عن عمومية التعليم بمعنى أن كل الأطفال — الأغنياء والفقراء ، والبنين والبنات — يجب أن يتعلموا . بل إن القس المورافى كومنيوس نادى بتأسيس سلم تعليمى كامل يبدأ من أدنى المستويات ويصل إلى مستوى الجامعة (٢) .

ولم تستطع الرغبة الدمقراطية فى التربية أن تحقق لنفسها مكانا تحت الشمس بسهولة ، فان سحب الأرستوقراطيين كانت تتجمع لتحجب الشمس عن

---

(١) مترو (المرجع السابق) ، ٧٤ — ٧٥

(٢) يجب أن نفرق بين « ديموقراطية التربية » بمعنى تكافؤ الفرص لكل المواطنين ، وبين « عمومية التعليم » بمعنى أن ينال كل مواطن قسطاً ما من التعليم ، وفى العمومية يختلف تعليم الفقراء عن تعليم الأغنياء بحسب المستوى الاقتصادى ، الأمر الذى ترفضه ديموقراطية التعليم .

التطلعات الديمقراطية . حتى بدأت هذه السحب تنقشع تدريجياً مع السنوات الأخيرة فى القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر .

وقد اهتم لوثر وكلفن وغيرهما بتعليم البنات ، ويلوح أن المدارس الهولندية كانت أسبق من غيرها فى فتح أبوابها لتعليمهن ، ولكن بعض الطوائف (مثل الكويكرز والإنجليكيين) رفضوا رفضاً باتاً تعليم البنات ، ويذكر أن الزوجة الثانية للويس الخامس عشر ملك فرنسا أنشأت مدرسة فى سانت سير لتعليم بنات الطبقات العليا .

ثانياً : لحركة الإصلاح الدينى الفضل فى بداية ظهور التعليم المدنى ، أى ذلك النوع من التعليم الذى أصبحت تسيطر عليه السلطات المدنية . ويمكن أن نطلق على هذا التعليم العام أو التعليم الشعبى الذى يتيح الفرص لأفراد الشعب لنيل قسط من التعليم ، وقد سار هذا التعليم المدنى جنباً إلى جنب مع زميله التعليم الذى تشرف عليه الهيئات الكنسية . وكانت بعض الهيئات الكنسية تسيطر على تعليم مشابه للتعليم المدنى من حيث مراحله ومواد الدراسة ، إلا أنها صبغته بصبغة دينية فيها دعاية واضحة لمذهبها الدينى .

على أن التعليم المدنى فى كثير من الدول الأوروبية بدأ يحس وطأة التعصب الدينى ، ولنأخذ مثلا السيطرة المدنية على التعليم فى انجلترا ، فقد أصدر الملوك الإنجليز البروتستانت أوامر خاصة بالمدارس والجامعات متوجه بأن الملك هو الرأس العليا للكنيسة . ويذكر أن الجامعات والمدارس خضعت لتفتيش ، فكان الملك هنرى الثامن والملكة اليزابيث يرسلان أعوانهما إلى هذه المؤسسات التعليمية كتابة تقارير عما يدور فيها . وقد صدر مرسوم عام ١٩٦٢ ممهوراً بخاتم الملكة اليزابيث يتطلب من كل مدرس أن يقسم يمين الولاء للملكية والعقيدة الإنجليكية .

وعندما دانت السيطرة للمتطهرين puritans فى إنجلترا ، نادى زعماؤهم بتأسيس نظام تربوى على مستوى الدولة(١) . ولكن السيادة للمطهرين لم تدم

(1) Butts, op. cit., pp. 260 - 261

مدة طويلة ، ولم يتحقق هذا النظام التربوى الذى راودهم . ولجأ المتطهرون إلى التعليم فى الخفاء حتى عام ١٦٨٩ بعد أن اعتلى عرش انجلترا وليام ومارى .

ثالثاً : اهتمام البروتستانت بالأسرة كمؤسسة تربوية ، فقد أكد لوثر أهمية الأسرة فى إثارة المعانى الخلقية والدينية وممارستها على هدى من الكتاب المقدس. وأكدت الكلفنية أهمية الأسرة فى التربية فى مراحل النمو الأولى ، ونادت بالإفاضة فى قراءة الكتاب المقدس ، والحرص على آداء الشعائر الدينية والصلوات ، والتحذير من العقاب الذى يحل على الأطفال الضالين ، وفى هذا يعبر كومنيوس بقوله إن على ركبتى كل أم مدرسة .

وقد ساعد على تحقيق بعض مبادىء البروتستانت انتشار الطباعة ويسرة الحصول على نسخ من الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية ، وخاصة بعد أن تزايد عدد القادرين على القراءة . ثم بدأت الأسر الموسرة تقتنى مكتبات خاصة .

رابعاً : الحركة الكاثوليكية المضادة : فلم يقف الكاثوليكيون مكتوفى الأيدى أمام هجمات البروتستانت ، وقامت نزعات دموية سالت فيها الدماء غزيرة تحت شعار مجد الرب ، ومملكة المسيح . وتناسى المسيحيون تعاليم السيد النبيلة ، فقتل الواحد منهم الآخر مظهرين قدرتهم على الكراهية والبغضاء فى عنف وقسوة هى أبعد ما تكون عن تعاليم هذا المعلم العظيم .

وأقام المحاكمون الأسبان والرومان محاكمهم لتحكم على مناهضى الكاثوليكية بالمرطقة والضلال الدينى ، وبأعمال السحر والشعوذة ، وبالكفر وسب الدين ... وغيرها من التهم التى أوصلت المذنبين إلى ساحات الإعدام . وقد عرفت الأعياد المسيحية مشاهد رهيبة لتسلية المسيحيين المخلصين . ففى هذه الأعياد اقتيد الضالون من البروتستانت وغيرهم من الطوائف غير الكاثوليكية

وكذلك بعض اليهود والمسلمين ، إلى المحازر العامة .

وبالمثل نال غير البروتستانتيين أصنافاً من التعذيب والاضطهاد حيث سادت البروتستانتية ، ففى ألمانيا مثلا ظهر التعصب الدينى مدمراً سفاحاً . وقد عقد البابا مجمعاً فى ترنت (١٥٤٣ — ١٥٦٣) من أجل تحديد العقيدة الكاثوليكية ، واقترح المجمع إنشاء جمعيات دينية من الجيزويت Jesuit وجماعة الخطباءOratorians والإخوان المسيحيين Christian Brether .

وكان المبدأ الأساسى لجماعة الجيزويت هو وجوب الخضوع التام للسلطة القانونية ، وشعار الجمعية « الكل للمجد الأعلى للرب » (١) .

وقد وضع الجيزويت خطة مثالية فى التربية ، لا لأفراد جماعتهم فقط ، ولكن لتربية الشباب بوجه عام . ولم تقتصر مواد التربية على المسائل الدينية ، بل حوت أرقى ما وصلت إليه العلوم المدنية وقتئذ ، وليس أدل على نجاحهم من أن بعض البروتستانت التحقوا بمدارسهم . ويؤخذ على نظام التربية عند الجيزويت عدم اهتمامهم بالتعليم الأولى ، فقد اهتموا بتربية القادة والزعماء ، ولذلك تفرغوا للتعليم العالى . ونجدهم حريصين على تكريس حياتهم للنهوض بمصالح طائفتهم ، ولم يطلبوا فى الغالب أجراً لقاء ما يقومون به من تربية(٢) .

وتتميز معاهد الجيزويت التربوية بدقة إدارية تثير الإعجاب ، فكان عميد الكلية يتبع رئيس الدائرة (قسمت الطائفة إلى عدد من الدوائر الإدارية ، ولكل دائرة رئيس مسئول مباشرة أمام القائد الأعلى) ، ويلى العميد العرفاء وهم يشرفون على المدرسين إشرافاً دقيقاً للتأكد من التزامهم للنظام الموضوع . ويشرف المدرسون على التلاميذ الذين يقسمون إلى مجموعات ، يرأس كل مجموعة مقدم . ويشرف التلميذ على زميله ، ويبلغ عن أى إنحراف فى النظام . ويذكر منرو (٣) أن المدرسين فى مدارس الجيزويت انقسموا إلى أربعة

---

(١) Omnia and majorem Dei gloriam

(٢) McCormick, op. cit., pp. 411- 420

(٣) منرو : (المرجع الأسبق) ص : ٨٨ - ٨٩ .

أقسام : الأساتذة ، والمساعدون ، والمدرسون ، والطلبة المعلمون . والطلبة المعلمون هم أولئك الذين قبلوا فى المهنة بعد أن انتهوا جزئياً من إتمام الدراسة بالكليات الصغرى . أما المدرسون فيخضعون لشروط قاسية من حيث المؤهلات ، ويفخر الكاثوليك بالعناية التى اتبعت فى إعداد المعلمين لمدارس الجيزويت (١) .

أما عن المدارس والتلاميذ ، فقد دخل الطلبة المدارس الثانوية التابعة للجيزويت بعد أن نالوا تعليماً ابتدائياً تحت إشراف هيئات أخرى . وسمح للتلاميذ بالالتحاق بمدارس الجيزويت بعد سن العاشرة ، وسميت هذه المدارس بالكليات . وهناك نوعان منها : الكليات الدنيا وتمتد الدراسة فيها إلى خمس أو ست سنوات ، ثم العليا والدراسة فيها على المستوى الجامعى . وقسم المنهاج فى الكليات الدنيا إلى : ثلاثة (فصول) للنحو ، ثم الفصل الرابع للإنسانيات ، ثم الخامس للبيان . أما فى الكليات العليا أو الجامعية فقد درس الطلبة فيها الفلسفة (وتشتمل على الرياضيات) ، والعلوم الطبيعية لمدة ثلاث سنوات .

وكانت اللغة اللاتينية هى لغة الدراسة بالكليات الدنيا والعليا ، واشتمل المنهاج فى أساسه على دراسة الفنون العقلية الحرة السبعة ومقتطفات من الكتاب اللاتينيين القدماء . ولم يشجع الجيزويت مطلقاً استخدام اللغة القومية ، كما (طهروا) مؤلفات غير المسيحيين ونقوها مما يتعارض مع المسيحية قبل أن تقدم ليدرسها الطلبة .

وقد انتشرت مدارس الجيزويت فى أنحاء العالم الغربى والشرقى ، ويذكر ماكورميك أنه كان لجماعة الجيزويت ٣٧٣ (كلية) عام ١٦١٥ ، ارتفع عددها إلى ٧٦٩ فى عام ١٧٠٦ ، ثم إلى ٨٢٧ فى عام ١٧٥٦ م ، وقد وصل عدد الطلبة فى هذه الكليات والجامعات فى منتصف القرن الثامن عشر إلى

---

(١) ويتضح هذا فى كتاب الدكتور Mc Cormick المشار إليه سابقا ، حيث أن المؤلف كان عميداً للكلية الكاثوليكية بأمريكا The Catholic University of America.

حوالى ٢١٠,٠٠٠ طالباً . وقد اضطهدت جماعة الجيزويت ثم رد لها البابا بيوس السابع مكانتها عام ١٨١٤ لتواصل رسالتها .

العقلية الأوروبية من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية

كان التفكير فى عصر النهضة احتجاجاً صارخاً على التقاليد المتزمتة التى فرضتها الحركة المدرسية خلال قرون طويلة ، وكان التفكير الجديد تحدياً للآراء الأرسطية والخضوع الكامل لها . ويمكن تقسيم العقل الأوروبى فى مراحل نموه منذ السنوات الأخيرة للعصور الوسطى إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) إلى عقلية عصر النهضة وعقلية عصر الإصلاح الدينى ، ثم عقلية الحركة العلمية ، وأخيراً عقلية فلسفات المذاهب العقلية والتجريبية والتشككية.

أولا : عقلية عصر النهضة :

درس الإنسانيون الكلاسيكيات ، ولكن قلة منهم تفهموا الروح العقلية الإغريقية ، ولذلك فان إسهام الإنسانيين جاء بطريق غير مباشر ، فان تأكيدهم على فلسفة أن الإنسان ككائن بشرى يجب أن تحتل مشاكله الدنيوية مركز الصدارة قد أدى إلى إثارة نمو الاهتمام بالأمور الدنيوية وحب الاستطلاع العلمى . وهذا ما يميز العقل الحديث . ولكن اهتمامات الإنسانيين كانت بعيدة عن الاتجاهات الواقعية وقريبة من الغموض . فان ارتباطهم بحركة الإصلاح الدينى جعلهم فى ركاب المعتقدات الدينية والإيمان بقوى عليا مهيمنة ؛ بل إن الإنسانيين والمصلحين الدينيين شغلوا بأمجاد العصور القديمة ، ولم يقدموا للتقدم البشرى إلا النذر اليسير .

وقد عبد الإنسانيون فى تقدير وخشوع التراث القديم ، وإذا كانوا فى دعواهم قد حاولوا تحرير عقل الإنسان إلا أنهم أوقعوه عبداً لكلمات وأفكار الكتاب القدماء مثل شيشرون ، كما حدث عندما وقع العقل البشرى أسيراً لفلسفة وآراء أرسطو . وقد عبر إيرازمس عن النزعة الشيشرونية فى نقد لاذع قائلا إن التفكير الحر يجب أن ينزه عن كل سلطة ، وأن هدف الإنسانيين

الشيشرونيين هو تقليد أفكار وأسلوب شيشرون (١) . وتحولت الإنسانية الى نادت فى أيامها الأولى بالفردية والحرية العقلية إلى قوة ضغط وكبت (٢) .

ثانياً : العقلية البروتستانتية — الكاثوليكية :

تخلخلت السلطة ونوقشت المعتقدات السائدة عندما خرج المصلحون الدينيون فى ثورتهم ضد الاستبداد الكاثوليكى . وفى غمرة هجوم المحتجين على التسلط الكاثوليكى فتحت أبواب ضخمة لآراء كثيرة تتحدى ما ظنه المسيحيون غير قابل للمناقشة . وكثرث مذاهب المتكلمين وآراؤهم ، وبهذا — بطريق غير مباشر — أتاحت البروتستانتية الفرصة للتقدم العقلى . فان البروتستانتيين أكدوا أهمية الكتاب المقدس كمصدر للإيمان وأساس للعقيدة والسلطة الدينية والخلقية . ورفض البروتستانتيون دعاوى البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم المفوضون لشرح العقيدة المسيحية . ومن الناحية النظرية فقد نادى البروتستانتيون بحق الفرد المؤمن فى الخلاص مباشرة دون الالتجاء إلى وساطة وسلطة الكهنوت . وقصد البروتستانتيون أن يكون من حق الأفراد والجماعات الصغيرة فهم وشرح الكتاب المقدس .

ولكن لم يستمر البروتستانتيون فى دعواهم التحررية هذه ، فقد تحولوا إلى تسلط أشبه بالتسلط الكاثوليكى ، بل إنهم استخدموا القوى المدنية لتأكيد معتقداتهم الدينية .

ومع اختلاف المذهبين إلا أنهما يفكران بطريقة متشابهة فى مدركاتهما عن الله والإنسان ومصيره ، والعالم . وقد جمعت هذه المدركات بينهما مكونين جبهة وقفت أمام شمس العلوم التى كانت تحاول البحث عن فجر تبرز من خلاله لتطل على العالم وتنيره وتدفئه . فقد ساد اتفاق بين البروتستانتية والكاثوليكية على أن هذا العالم من خلق الله ، وفيه يلعب الإنسان دوراً حدده

---

(١) طلت الحركة الإنسانية تدافع عن نفسها حتى النصف الأول من القرن السادس عشر تحت اسم (الشيشرونية) التى ترى أن الغرض من التربية هو تدريب المتعلمين على اتباع الأسلوب اللاتينى الكامل وأن شيشرون هو المثل الأعلى لذلك الأسلوب . وفى رأى الشيشرونية أن العمل المدرسى يجب أن يقتصر على دراسة مؤلفات شيشرون أو مقلديه .

(٢) Mulhern, op. cit., p. 253

له الخالق وواهب الحياه . واتفق المذهبان على أن هناك فرقاً بين العالم الطبيعى والعالم فوق الطبيعى ، وأن هذا الأخير — أو العالم الروحى — أكثر أهمية .

وفى رأى أصحاب المذهبين أن طبيعة الإنسان ثنائية ، تتكون من عناصر روحية وعناصر مادية ، والعناصر الروحية أكثر أهمية . وأكدت بعض الجماعات المسيحية مثل الكلفنية مبدأ الخطيئة الأصلية وأن الفرد يولد ومعه الخطيئة ، ولكن سادت اتجاهات فيما بعد مؤداها إنكار الخير الفطرى فى الإنسان ، بل إنكار أنه يولد ليس خيراً وليس شريراً . وقد اتفق البروتستانتيون والكاثوليك على أن فعل الإنسان وسلوكه الخير فى حياته الدنيوية ضرورى لمجد الرب ولكى ينقذ الإنسان من عقوبة أبدية . وفى اعتقاد الكاثوليك والبروتستانت أن المعرفة والحقيقة تكشف عنهما قوى عليا حتى تنكشف للإنسان ، وأن هناك حقيقة مطلقة محددة . وقد اتفق المذهبان أيضاً على أن الهدف الأول فى تربية الإنسان هو معرفته الحقة للقوانين والأحكام الإلهية . ولذلك فان معرفة الإنسان للعالم الطبيعى أقل أهمية من معرفته للعالم الروحى والخلقى . وقد فهم الكاثوليك والبروتستانت عملية التعلم على أنها الكشف عن الأفكار الفطرية التى وهبها الله لكل فرد . ولكى تخرج هذه الأفكار إلى عالم النور يجب أن يخضع المتعلم لعمليات تدريب عقلى وخلقى ، بل لابد له من دراسة اللغات والآداب وحفظها على ظهر قلب .

هكذا كانت عقلية عصر الإصلاح الدينى ، سواء عند المحتجين البروتستانت . أو أهل التعصب الكاثوليكى ، عقلية عارضت البحث العلمى (الحديث) ، فقد أحرقت الكنيسة الكاثوليكية جيورادانو برونو Giordano Bruno(١) . كما أرغم جاليليو Galileo على إنكار معتقداته عن أن الأرض

---

(١) اتهم برونو فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بالهرطقة وتحدى سلطة الكنيسة الكاثوليكية عندما أعلن أن فكرة كل شخص عن العالم تتناسب مع مركزه ، وأنه لا توجد حقائق مطلقة ... الخ . وقد حكم عليه فى البندقية بالإعدام حرقاً ، وشد إلى قائم حيث أحرق سنة ١٦٠٠ . ومن المضحك أن القائم الذى شد إليه يرمز إلى « حرية التفكير » .

تدور حول الشمس . وقد وصف لوثر العلوم بأنها زوجة الشيطان وأنها أعدى أعداء الله (٢) .

ثالثاً : العقلية العلمية :

عاد الاهتمام بالعالم الطبيعى وقوانينه منذ القرن الثانى عشر فى أوروبا وتجمعت مظاهر هذه اليقظة فى حركة النهضة العلمية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما تحول اهتمام التفكير من عالم ما فوق الطبيعة إلى العالم البشرى ، ثم تركز فى العالم الطبيعى وقوانينه . ولعل أخطر وأعظم (اختراع) كان طريقة البحث الجديدة وهى الملاحظة والتجريب ، فان كل التغيرات التى طرأت على التفكير والمؤسسات الاجتماعية ترجع فى أصولها إلى فضل العلم scienceوتأثيره على ميادين التربية والدين والأخلاق . لقد أعطى العلم للبشر عقلا جديداً ، عقلا ولد فى فترة من الألم والمعاناة من جراء الالتحام الدموى العقائدى بين القديم والحديث ، صدام أفكار حددت مقادير ومصائر الملايين من البشر على الأرض التى ارتوت بدماء البعض وازدهرت بجهود البعض الآخر .

وكان الإنسان قد مجد نفسه ، ثم حدث أن اكتشفت الدنيا الجديدة فى الطرف الآخر من المحيط الأطلسى الواسع ، وساد اعتقاد بأن هنالك عوالم أخرى مجهولة وآفاقاً لم نعرفها بعد ، وبدأ تمجيد الإنسان يخبو لتلمع أهمية الأرض والعالم الطبيعى وتطلع الإنسان حواليه وإلى فوق رأسه . وبان له الكون هائلا جباراً ، وحل اعتقاد بأن الكون معقد لا نهائى .. وكان هذا الاعتقاد محطماً لآراء أرسطو وبطليموس وغيرهما ممن سيطروا على التفكير المسيحى .

ثم تقدم العقل العلمى محتلا الأرض التى جلا عنها السلطان الكهنوتى والسيطرة الكنسية ... وبدأت حركة تحرير العقل الغربى من تحكم الحكمة القديمة والمعتقدات والآراء التى خرجت من مدن فى شرق البحر المتوسط وانتقلت ببطء مستمر على اليابس وعلى سطح الماء إلى جنوب أوروبا ثم غربها

(١) Butts,op. cit., pp. 247-248

ووسطها وشمالها ... اهتز هذا العقل بفعل دقات العلم الحديث والتفكير العلمى السليم .

ومع أن الآراء القديمة عن الكون كانت من كلام الوثنيين إلا أن البروتستانت والكاثوليك اضطهدوا كل من عارض تلك الآراء ، فقد أحرق برونو وأرغم جاليليو على سحب آرائه ، واضطر كل أستاذ فى جامعة تشرف عليها سلطات كنسية أن يقسم بأنه لن يدرس نظام كوبرنيق (١) . وعارض العقل البروتستانتى والكاثوليكى نتائج التلسكوب واستخدامه ، بل قيل إن ما تراه العين من خلال التليسكوب إنما هو من فعل الشيطان القابع داخل هذا الجهاز ومهمته خداع العين ، وأن ما رآه أرسطو هو الموجود ، وما لم يره فهو غير موجود .

وعلى الرغم من هذه المعارضة الجارفة ، فقد تحين العلماء الفرص السرية للاجتماع وإجراء تجاربهم بعيداً عن العيون . وجربوا فى الطبيعة والكيمياء والهندسة ، وبحثوا فى الفلك والجغرافية والتشريح والطب والملاحة والإحصاء ... إلخ . وتنبأ أصحاب العقول الراقية أن اليوتوبيا العلمية أصبحت على الأبواب . عن هذه المدينة المثالية تكلم كومنيوس وبيكون وغيرهما ممن مدوا أبصارهم عبر السنين ليشاهدوا مدناً تصل إلى الكمال عن طريق الاختراعات العلمية . وقال بيكون إن المعرفة قوة .

فضل كبير يعود إلى الطريقة العلمية فيما توصل إليه الإنسان من كشوف واختراعات . وقد أسست هذه الطريقة على آراء فرنسيس بيكون Bacon فى كتابه الطريقة الجديدة Novum Organon (الذى ظهر فى عام ١٦٢٠) والذى نادى فيه بالطريقة الاستقرائية (٢) . ولبيكون الفضل فى أن طريقته

---

(١) نيقولا كوبرنيق (١٤٧٣-١٥٤٣) عالم فلك بولندى وصف الشمس بأنها مركز الكون و أن الأرض تدور حولها .

(٢) فى الاستدلال الاستقرائى تشتق المدركات أو المعانى أو القواعد من الجزئيات ، أى يكون الدارس قاعدة عامة من حقائق جزئية ، كأن تقول إن الحديد معدن وهو يتمدد بالحرارة والنحاس معدن وهو يتمدد بالحرارة والذهب معدن وهو يتمدد بالحرارة ، ثم تخلص إلى قاعدة وهى أن المعادن تتمدد بالحرارة وفى الاستدلال القياسى تطبق القاعدة على جزئيات .

الجديدة علمت العالم أن الأشياء الحقيقية هى الأشياء المادية وقوانين العالم الطبيعى . وكانت هذه النظرية تحدياً صارخاً لآراء أفلاطون (١) .

رابعاً : عقلية الفلسفة

كان لابد للاتجاهات العلمية أن تؤثر على تيارات التفكير ، فقد أصبح العقل العلمى يؤمن بأن لكل المعرفة جذوراً فى الخبرة . ويؤمن التجريبيون Empiricistsبأن ما هو موجود فى العقل وجد قبل ذلك فى الحواس . غير أن العقليين Rationalistsيلحون فى القول بأنه إذا كانت الحواس أدوات الحصول على المعرفة ، فان هناك مصدقات يصل إليها الفرد بعقله فقط ، ولا دخل للخبرة الحسية فيها . على أن المتشككين Skebtics أنكروا تماماً إمكانية المعرفة ، ولهذا فان شغباً عقلياً ساد القسم الأول من عصر العلوم .

فقد أساءت العلوم إلى اللاهوت والدين والأخلاق والميتافيزيقا . أساءت باتجاهاتها وآرائها وطرائقها فى البحث . ووقف بعض الفلاسفة أنداداً أشداء للعلوم فيقول جورج بركلى Berkeley الفيلسوف الإنجليزى (١٦٨٥ — ١٧٥٣) بأن المادة لا توجد منفصلة عن كينونتها المدركة ، وأن عقل الله الذى يلاحظ كل شىء هو القادر على استمرار الوجود الظاهرى للأشياء المادية ، كما أن داود هيوم Hume الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندى (١٧١١ — ١٧٧٦) أصر على تشككه فقد أنكر إمكانية المعرفة الحقة محطما دعاوى العلوم والفلسفة ومؤكداً إنكاره قدرة الإنسان على معرفة أى شىء عن حالاته العقلية أو عن العالم الخارجى .

ولكن ما أحسته الحواس كان كافيا لإقناع الجمهرة بأنه حقيقى ، وأن العالم المادى الطبيعى موجود . وبالحواس استطاع الناس أن يحركوا صخرة المنطق ممهدين الطريق للعلوم لتأخذ مجراها . بل إن الطرق العلمية أصبحت تجد صدى عميقا فى اتجاهات تفكير الجمهرة . . . ولكن سطوة الدين وقفت شامخة ثابتة قوية وهب فلاسفة مثل بركلى يقولون إن الحقيقة روحية ،

(١) مزيد عن بيكون فى الفصل التالى .

حقيقة مثالية ، وغيرهم آمنوا بالأفكار الفطرية ليحموا الدين . ولكن المتشككين والتجريبيين أنكروا صحة هذه الآراء . فيقول جون لوك Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) إن أساس المعرفة الخبرة ، ثم أثار النقاش حول وجود الله . وظلت الحركات الثلاث تعمل لتحرير الفلسفة من عبوديتها للدين وبذلك مهد الطريق للفلسفة الحديثة ورائدها عمانويل كانت Kant الفيلسوف الألمانى (١٧٢٤ — ١٨٠٤) .

ثالثا — عصر العقل

انتقل المسرح الذى تمثل عليه الدراما البشرية الحديثة والإصلاح التربوى خلال القرن الثامن عشر إلى فرنسا التى شهدت بزوغ أفكار ومبادىء كان لها أن تلعب دوراً خطيراً فى حياة إنسان العصر الحديث . والظاهر أن الفرنسيين أظهروا تفوقا على غيرهم من الشعوب الأوروبية ، فقد قامت حرب بين معسكر أنصار الأدب الكلاسيكى وبين أنصار الأدب الحديث، بزعامة Charles Perrault فى عام ١٦٨٧ .

وعاش إنسان عصر التنوير فى أوروبا يتخير بين ثلاثة مصادر يشتق منها المعرفة : الحواس والعقل والإيمان ، وكان الإنسان فى تطوره يحاول دائماً أن يوازن بين هذه المصادر ، ولكن كثيراً ما كان يغلب عليه مصدر منها ؛ ففى العصور الوسطى غلب الإيمان ، فكان مصدر معرفته ما ينزل إليه من عند الله . أما فى فرنسا القرن الثامن عشر فقد حدث تكامل بين عقلية ديكارت وتجريبية جون لوك ، ومثل هذا التكامل فولتير . ويعبر عن هذا التكامل بالعبارة الآتية (١) :

« نحن نعرف الحق بالعقل والعقل لا يستنير إلا عن طريق الحواس ؛ وما لا توصله حواسنا لا نعرفه ، ومن البله أن نضيع وقتا فى التخمين . إن التصور والإحساس يقودان الأعمى قيادة عمياء : وكل الذين يدعون أنه قد تكشفت لهم أمور أو ألهموا ، إنما هم مخادعون ؛ وأن مصدقيهم بلهاء » ؛

(١) Eby, op. cit., p. 305

وبهذا المفهوم وهذه الفلسفة تميز التفكير فى القرن الثامن عشر ، معتمداً على العقل وعلى الإدراك الحسى . وأعلن ديكارت ثلاثة أسس تقبلها المفكرون : (١) تفوق العقل ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة ، (٣) طريقة محددة لاختيار الحق والتحقق منه .

وقد حقق العقل نصراً خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فى ميادين الرياضيات والعلوم الطبيعية ، مما حدا بمفكرى القرن الثامن عشر إلى الثقة به . وكانت آراء وأعمال كوبرنيق وجاليليو ونيوتون وغيرهم أصدق دليل على سفاهة التخمين والخضوع دون تفكير أو تجريب للأراء المتوارثة ، ووقف العلم شامخاً متحدياً رجال الدين وغير المؤمنين بالعقل والتجريب .

وكانت هذه التغيرات هى التى حدت بمفكرى القرن الثامن عشر إلى التأكد من أن يقظة عقلية بدأت تهز الناس ، واحدة من تلك اليقظات التى عرفها التاريخ أيام مجد آثينا وعصر النهضة مثلا . وأطلق المفكرون على هذا الزمن « عصر العقل » Age of Reason أو « حركة التنوير — "Enlightenment" وأحس الإنسان المفكر أنه يتحرر من الماضى المظلم القاسى ، ذلك الذى سيطرت عليه الخرافات والأخطاء والجهل والتقاليد ، وكأنما الإنسان فى ذلك الماضى قد خدر واقتيد فى طريق ضال ، لأنه لم يفكر بنفسه ، فعاش حياته مغلفاً بالضباب لا يخرج منه ، ولم ير الشمس . ثم كانت الاتجاهات العلمية فانقشع الضباب وخرج الإنسان إلى النور ... وإلى الحرية ... بل إن النساء بدأن يدرسن الفلك والتشريح وأطلق لذكاء الإنسان العنان .

وأدرك الفلاسفة الطبيعة على أنها آلة ضخمة تحكمها قوانين ثابتة . ولابد من معرفة هذه القوانين لخير الإنسان . وكما قال بيكون « المعرفة قوة » ، وتحول القول إلى علم واختراعات . وزاد إيمان المفكرين لمهاجمة الفساد فى الدين ، والأخلاق ، والدولة ، والمجتمع ، والكنيسة . ولن يستطيع الإنسان الوصول إلى هذه الجنة إلا بتحسين نفسه عن طريق المعرفة الماضية

الكلاسيكية ، ولكنها المعرفة الحديثة التى تظهر فى إنجازات العلوم والتحسينات فى الفنون .

ولكن من يفكر ؟ هل يستطيع كل الناس هذا اللون من التفكير ؟

يؤخذ على حركة التنوير أنها كانت أرستوقراطية فى اعتمادها على العقل كمنبع لنعيم الإنسان ، بل إن جماعة Encyclopedists (جامعى المعرفة) الذين هدفوا إلى التوفيق بين العقل والمؤسسات الاجتماعية ، اعتقدوا أن عامة الشعب غير قادرة على التنوير واستغلال العقل . ولذلك فهم فى حاجة دائمة إلى قيد يحدد حركتها . . . . « سوف تظل العامة دائماً غبية همجية ، إنهم ثيران تلزمها النير والسياط والعليق » .

وفشلت فلسفة حركة التنوير فى ميدان آخر فانها لم تقدم نظرية اقتصادية تتمشى مع الاتجاهات العقلية والعلمية ، وظهر جماعة أطلقوا على أنفسهم إسم الفسيوقراطيين Physiocrats أو الاقتصاديين Economisis وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وكلمة فسيوقراطية تعنى سيادة العالم الطبيعى بمعنى سيطرة القوانين الطبيعية على الاقتصاد ، وإلى الفسيوقراطية يرجع الفضل فى تأسيس علم الاقتصاد .